شكسبير فى اللغة العربيـة

تاجر البندقية

(١)

ما هو الابتكار ؟ سؤال نحس بالحاجة إلى الاجابة عليه لما ركب الناس فى أمره من الخطأ ، ودخل عليهم فيه من الوهم ، حتى صاروا يفهمون من الابتكار أن يأتى المرء بشىء جديد لا صلة قربى له بالقديم ولا لحمة نسب بينه وبين الحاضر المكتنفه . فإذا قيل « فلان » شاعر أو كاتب مبتكر ، توقع جمهور القراء وعامة الخواص منهم الذين لا قِبل لهم ، لسبب ما ، بالتقصى فى البحث والتدقيق فى النظر — أن يفجأهم الشاعر أو الكاتب بما يختلف عن كل ما قرأوه أو سمعوا به اختلاف الإنسان عن النبات ! وذهبوا يطالبون هذا الشاعر أو الكاتب بأن يكون « كالعنكبوت لا ينسج خيوط بيته إلا مما توتيه إياه أمعاؤه » .

ولكن الطبيعة مقتصدة غير مسرفة ، وهى لا تكترث للفظ نحته الناس وأرادوا أن يفهموا منه معنى معينًا يخالف قوانينها وسننها ولا يتسع له ضيقُ الحياة الفردية وقصرُ الآجال الشخصية . فهى تأبى إلا أن تجعل أعظم الشعراء أكبرهم دينًا . وتعجبنى كلمة لأمرسون شبه فيها نبوغ الشاعر فى قومه بظهور البطل فى إبان المعركة ، وعنفوان الوعكة . وليس أمامى كتابه فأسوق ما قاله بحروفه ولكن هذا مفاد التشبيه وليس أعون منه على تصور حقيقة الواقع وعلى إصلاح الخطأ الشائع . فكما أن البطل مدين لغيره من سابقيه ومعاصريه ، ولظروف الأحوال ، بأدوات القتال وبمادة

الحرب وبجانبٍ من أساليبها وبإلهاب نار الحماسة وبتمركز الخواطر واستجماع شتاتها ، وإنما يكون فضله فى حسن استخدامه لذلك كله ، والانتفاع به على أصلح وجه وأكفله بالنجاح ، وفى حذقه وأستاذيته فى توجيه الجهود وتصريفها ، وفى قدرته على الاستيلاء على النفوس بما رزق من قوة الجذب ، كذلك ليس على الشاعر أن يخلق مادته ويوجد من العدم بضاعته ، وإنما يُلفى الطين مهيأ ، والحجر منحوتًا ، والقاعدة مرصوصة ، فيشيد على هذه بذاك ويخرج لك مما وجد بناءً ليست قيمته فى انقطاع النظائر بل فى مبلغ اتساع الأفق وبعد المدى والاحاطة . وماذا عساها كانت تكون حال الإنسان لو أنه كان على كل فرد أن يخلق مادته التى يستخدمها ؟ كانت إذًا كل حياة تكون تجارب لا ينتفع بها أحد ، تضيع فيها الأعمار ولا تكون فيها عائدة على الفرد ولا على الجماعة . ولكن الطبيعة لحسن الحظ تأبى هذه الفردية الضيقة وترفضها ولا تسمح بالعظمة للفرد إلا مستخلصةً من قوى الجماعة وقائمةً على جهودها . وماذا كان يستطيع شكسبير كما يتساءل أمرسون أيضًا لو أن الطبيعة لم تُزخر له تيار الحياة ولم تخرج كيد ومالون وجرين وجونسون وشابمان وديكر وهيوود ومدلتون وبل وفورد وبل وفورد وماسنجر وبومنت وفلتشر ؟ بل ماذا كان يصنع لو لم يكن المسرح فى عهد ظهوره مستوليًا على هوى الجمهور ؟ بل لو لم تكن قد تكدست قبله كل تلك الروايات التى لا يعرف أحد تاريخها ولا حفظ الزمن أسماء واضعيها أو مؤلفيها أو منقحيها ، والتى ظلت زمنًا وهى ملك خالص للمسارح يأخذ منها كل شاعر ويحوّر فيها كما شاء قلمه واستوجب زمنه ؟ ؟

وكأنا بالطبيعة مع حفظها حقوق التأليف لنوابغ الأفراد الذين يكون من حسن طالعهم أن يظهروا بعد انقضاء عصور الاستيحاش والظلمة —

كأنا بها لا تحب أن تغمط الجماعة حقها أو تسلبها فضلها . ولكن تاريخ فن الشعر مع ذلك هو تاريخ لجور الفرد على حق الجماعة . ومن الذى يخطر له أن يعزو شيئًا من فضل شكسبير أو هومر أو ايسكيلاس إلى غيرهم ؟ لقد كان الشعر الأول أغانى تشترك فيها الجماعة كلها وكان الشعر – إذا صح استقراؤنا – ينظم فى ظروف اجتماعية وينشد فى اجتماع القبيلة أو العشيرة كلها وكان الرقص والغناء والموسيقى شيئًا واحدًا وكانت الألفاظ أقل شأنًا إذ كانت العاطفة أسبقَ إلى ايجاد التعبير عنها من الفكر ، ولم يكن التأليف معروفًا فى هذه الدرجة من تاريخ البشر ، ثم أخذ الفرد يظهر لما أحس أن له عواطفَ وخواطر خاصةً به وحده وأن له استقلالاً عقليًا ، وصار على قدر ظهوره واستقلاله اختفاءُ الجماعة وغموض أثرها حتى صارت طائفة تجتمع لسماع قصيدة تُنشد أو تُغنى وهى لا تحس أثرها فيها بعد أن كانت فيما خلا من العصر هى المؤلفة لها ، شأنها فى ذلك كشأنها مع رجال السياسة والحكومة . ولا ريب أن الجماعة تظل زمنًا مشاركةً للشاعر فى حالته النفسية ، ولكنها لا تلبث أن يستبد بالأمر الفنىُّ الماهر ويروح يوحى إليها – وإن كان ما زال يستمد منها – ويبعثها على مشاطرته هذه الحالة النفسية ويحيى فيها راقد مشاعرها كما يرسل المرء الصوت فتتجاوب بأصدائه أركان الكهف – وهذا تطور طبيعى فإن المدنية معناها « كلٌّ له عمل » أى الاخصاء ، ومتى انتقل مركز الثقل فى حياة الجماعة ، بعد أن تتألف تأليفًا سياسيًا ، انتقل معه المركز الأدبى ، ولكن أثر الجماعة لا يزول وإن كانت لا تدريه ولا تحسه وقد لا يحسن أحدٌ التفطن إلى تقدير مبلغ هذا الأثر إلا بعد جيل أو أجيال .

* * *

قدمنا هذا على سبيل التوطئة للكلام على رواية « تاجر البندقية » التى

نقلها إلى لغتنا الأستاذ خليل مطران الشاعر المعروف . ومن قبل ذلك ما نقل رواية عطاء الله أو عطيل كما آثر أن يسميها وهى لشكسبير كذلك كما يعرف القراء ، وانه لطماح مشكور له على كل حال ، وتسام محمودٌ عن الاسفاف إلى الروايات والقصص الفاترة السخيفة التى تخرجها مطابع الغرب والتى كلف بترجمتها بعض شبابنا المساكين .

ولكنّ هناك مسألة معضلة يجدر بكل ذى رأى أن يفكر فى حلها خدمة للغة العربية نفسها : ذلك أن رواية شكسبير كلها شعر وليس فيها من النثر إلا صفحات معدودة يجريها على ألسنة بعض أشخاصه من حين إلى حين لغرض مفهوم وعلة واضحة . ولكن الأستاذ أسبغ على رواية تاجر البندقية حلة من النثر كستها من فاتحتها إلى ختامها ما عدا بضعة عشر بيتًا وحل بهذه الطريقة مشكلاً نراه نحن أعوص وأشد تعقيدًا من أن يحل على هذا الوجه .

ونحن ممن يقولون بأنه يجب أن تكون هناك ، إلى جانب الترجمة الشعرية ، ترجمة نثرية حرفية ، ونقول إلى جانب الترجمة الشعرية لأن النثر ، وإن كان أدعى إلى الدقة فى النقل وأعون على الاحتفاظ بما فى الأصل ، يجرد الرواية من مزية الشعر وليست هذه بالضئيلة التى لا يقام لها وزن . ولو كان يستوى أن تساق الكلام نثرًا أو شعرًا لما نشأت الحاجة إلى الشعر بل لكان الشعر قيدًا اختياريًا لا معنى له ولا مزية فيه ، ولكن الواقع أن الشعر فن قائم بذاته لم يخترعه الإنسان ولكن سيق إليه وتدفقت عواطفه – وهى الأصل فى كل شعر – على أوزانه ، ونشأ مع الجنس الإنسانى مذ صار الإنسان حيوانًا اجتماعيًا . فنقل الشعر من لغة إلى أخرى نثرًا لا ينفى وجوب ترجمته شعرًا . ولكن كيف يكون ذلك فى لغتنا العربية ؟ هذا هو محل الاشكال . وأى البحور تختار لشعر شكسبير وغيره من الروائيين ؟ انهم يستخدمون فى لغات الغرب الشعر المرسل وهو بحر سلس التدفق لا يكاد القارئ يحس مقاطعه فضلاً عن إطلاقه من قيد

القافية . وبحور الشعر العربى أصلح ما تكون للشعر الغنائى أو ما يطلقون عليه فى الغرب لفظة (ليريك) وهو لا يصلح لحوار الروايات التمثيلية لفرط غلبة الموسيقية عليه . والحوار التمثيلى أحوج ما يكون إلى بحر لين لا يظهر فيه التوقيع الموسيقى كما يظهر فى سواه ، أضف إلى ذلك أن البيت من الشعر فى القصيدة العربية « وحدة » تامة فى ذاتها قائمة بنفسها من حيث التأليف اللفظى وتعلق الكلام بعضه ببعض على معانى النحو ، وليس يربطه بما قبله وبعده من الأبيات – إذا ربطه شىء – إلا المعنى وليس كذلك البيت أو « السطر » فى الشعر الغربى فهو هناك ليس بوحدة ولا يجب فيه أن يكون مشتملاً على جملة أو جمل تامة من حيث التأليف اللفظى ، وكثيرًا ما تستوعب الجملة الواحدة عدة أبيات أو « أسطر » متلاحقة . وامكان مثل ذلك فى الشعر العربى عسيرٌ إلى الآن . وواضح من موجز ما بينا أن ترجمة شكسبير وأمثاله شعرًا تستوجب اختراع بحر جديد شبيه بالوزن « الأبيض » كما يسمونه وتستدعى أن لا يكون البيت أو السطر وحدة كما هو إلى الآن . ولم نشر إلى القافية لأن قيدها مما يسهل صدعه والتحرر منه . فليفكر معنا من يعنيهم الأمر – وهو يعنى كل أحد – .

تاجر البندقية

(٢)

« أصل هذه القصة أحدوثة جرت على الألسنة فى ايطاليا محصلها أن فتاة ذات مال وافر ، وجمال باهر ، وعقل كالكوكب الزاهر ، مات عنها أبوها فخطبها إلى نفسها ملكُ مراكش وأمير أراغون فى جملة النبهاء ممن خطبها . ولكنها وجدت أميل إلى شاب رقيق الحال من مسقط رأسها استدان المال الذى أنفقه فى الزلفى إليها بضمان صديق له رهن لليهودى الذى أقرضه ذلك المال رطلاً من لحم صدره . فاستخارت الفتاة الله فى

مستقبلها وناطت أمرها بثلاثة صناديق : ذهبى . وفضى . ورصاصى . جعلت فى الأول منها جمجمة ميت ، وفى الثانى رأس هزأة أبله ، وفى الثالث رسمها . ومن اختار « الأخير » أصبحت له حليلة . وقد جاء فى هذه الحكاية ما يجىء عادة فى أمثالها : إن حبيب الفتاة هو الذى ألهم الصواب ففرحت به واحتالت لانقاذ صديقه من تبعة ضمانه لليهودى بأن تزيت بزى عالم قانونى وقضت على المرابى » .

صدق الأستاذ المترجم فإن مصدر القصة ايطاليا . ولكنها لم تكن قصة واحدة ، كما جعلها شكسبير ، بل عدة قصص جمع هو شتاتها وألف بينها من خمسة مصادر على ما يظن الشراح أولها « جستا رومانورام » وهى مجموعة حكايات باللاتينية ، وفيها قصة الضمان ورطلُ اللحم والنصولُ من شرط الضمان بنفس الحيلة . وثانيها « ال بيكورونى » وهى كالأولى طائفة من القصص وردت فيها ، فضلاً عن حكاية الضمان ، حادثة تبادل الخواتم . وثالثها « الخطيب » لسلفين وفيه فصل عن يهودى يريد فى مقابلة دينه رطلاً من لحم رجل مسيحى . ورابعها « قصة جرنوتوس يهودىّ البندقية » وفيها زيادة على ما سبق أنّ اليهودى « يشحذ سكينه » استعدادًا لقطع رطل اللحم . وخامسها « يهودى مالطة » لمارلو ، وفيها نظير لعلاقة لورنزو المسيحى وجسكا اليهودية ، وذلك أن برباس اليهودى ، فى رواية مارلو ، له ابنة تحب مسيحيًا وتتنصر لأجله ، ومن المعروف أن مارلو كان له تأثير كبير فى صدر حياة شكسبير .

هذا إلى مصادر أخرى عديدة لا يعقل أن يكون شكسبير قد اطلع عليها . ومهما يكن من الأمر فإن الثابت الذى لا مجاز إلى الشك فيه هو أن شكسبير لم يخلق حكايته . ولكن ما قيمة هذا ؟ وكيف يغض من قدر الشاعر ويطأ من منزلته التى تبوأها وحده ؟ ؟

إن القصص والحكايات التى تصلح للروايات التمثيلية لا يأخذها حصر

ولا يناله حساب . وهى كالحجارة ملقاة فى طريقنا جميعًا ، ولكن ليس كل أحد بمستطيع أن يخرج من احداها رواية كتاجر البندقية . فإن كان أحد يشك فى ذلك فما عليه إلا أن يجرب ! هذا أصل القصة موجود فى أكثر من كتاب واحد ، وتلك رواية شكسبير قريبة المنال ممن شاء ، فليأخذ هذه وتلك وليضع هو رواية مثلها ليقيس عجزه إلى قدرة شكسبير وعبقريته !

وليس فضل شكسبير ومزيته فى أنه ما من خصلة من خصال الخير أو الشر إلا أحسن تصويرها ، أو كما يقول الأستاذ المترجم : « تجد الطمع فتقول لا يصور بأدق من هذا . تجد الجبن فتقول لو تمثل رجلاً لكان هذا . تلمح الحقد فتقول كأننى بفلان وفلان وفلان وقد كشف كلٌ عن جزء من الحقد الذى فى قلبه ، فاجتمع من الثلاثة الأجزاء هذا النوعُ التام من الحقد ، بل النوع الأتم . وهكذا الحكم فى كل ما تصدى شكسبير لاظهاره بمظهره البشرى » .

نقول ليس الأمر كذلك لأن النفس الإنسانية ليست خزانة مرصوفة فيها الفضائلُ والرذائل – أو الصفات – كما ترصف الكتب بحيث تستطيع أن تنتزع إحداها من بين أخواتها ثم تصورها كأنها شيء قائم بذاته لا صلة بينه وبين اخواته . وإنما النفس ميدان لتنازع الغرائز والعواطف . والمزية كل المزية فى رسم الخلق الحادث من تفاعل هذه الغرائز والعواطف والصفات ومؤثرات البيئة والنشأة . خذ مثلاً لذلك شيلوخ فى هذه الرواية التى هى موضوع كلامنا والتى عليها مدار البحث :

يهودى فى القرون الوسطى – ومن ذا الذى لا يعرف ما كان يعانيه اليهود فى تلك العصور المظلمة ؟ – مهددٌ فى كل ساعة من عمره ، ككل

أبناء جلدته ، بأن يحرق حيا وأن يُسطى عليه ويُهب ماله ويُنفى ويشرد عن بلده وعياله ، وهبه نجا ، لحسن طالعه من ذلك ، فهو ليس بمنجاة من الامتهان والسب والضرب واللعن ، ولم يكن اليهود إذ ذاك أقل تعصبًا ومقتًا لأديان غيرهم ، ولا أكثر تسامحًا من حيث العقيدة والجنس ، ولكنهم كانوا الضعفاء الذين لا حول لهم ولا سلطان . يضطرهم الحرمانُ من الأعمال الاجتماعية المباحة لغيرهم أن يقصروا همهم على استرباء المال . ولا بدع إذا تعلم شيلوخ ، من طول الاضطهاد واليأس من الانصاف ، أن يتظاهر بالخنوع وأن يداجى وأن يكتم ما ينطوى عليه من مقت وتحفز وأن لا يُجرى لسانه إلا بالمعسول من الألفاظ . وإذا تفلتت منه كلمةٌ واشية بمرارة نفسه وبما ضُمت عليه أضالعه من النزوع إلى التمرد على هذا الظلم ، عاد فمسح من خصمه فى الذروة والغارب . انظر هذا الحوار الذى استدعاه طلب الاقتراض منه ، والذى كأنما أراد به شكسبير أن يليح للقارئ بنية اليهودى وإسراره الانتقام :

« شيلوخ — يا سنيور انطونيو ! كثيرًا ما قرعتنى فى الريالتو (المصفق) على أعمالى المالية ومراباتى ، ولقد احتملت ذلك أبدًا صابرًا وكنت أقابله برفع الكتفين . إذ كان الصبر شعارًا أمتنا . وطالما نعتّنى بالكافر والكلب العقور ، وبصقت على عباءتى التى تنطق بيهوديتى ، وكل ذلك لأننى أستربى مالى الذى هو ملكى . فالآن يظهر أن بك حاجةً إلى معونتى : تأتى إلىّ وتقول « شيلوخ ! نريد مبلغًا من المال » أنت تقول ذلك . أنت يا من أفرغ فى لحيتى لعابه ، وضربنى برجله كما تطرد الكلب الغريب عن عتبة بيتك : المال طلبتك . فماذا ينبغى أن أقول لك ؟ ألا ينبغى أن أقول « أعند الكلب مال ؟ أيمكن أن يُقرض الكلبُ ثلاثة آلاف دوقى ؟ » أم يكون علىّ أن أنحنى وأقول بلهجة العبد وصوته الخافت وذلته الهامسة : « يا سيدى الجميل ! لقد بصقتَ فى وجهى يوم الأربعاء المنصرم ، وطردتنى

ضربًا برجلك يوم كذا ، ودعوتنى الكلب يومًا آخر ، فوفاء بحق هذه المكارم سأقرضك هذا القدر من المال ؟ » .

« انطونيو – من المحتمل أن أسميك كذلك مرة أخرى ، وأن أبصق فى وجهك ثانيًا ، وأن أطردك برجلى أيضًا . فإذا كنت مقرضًا هذا المال فلا تقرضه كأنك تجامل به صديقًا . ومتى كانت الصداقة تستولد المعدنَ العاقر ؟ ؟ ولكن أقرضه عدوك حتى إذا قصّر فى الوفاء كنت فى حل من إلزامه العقوبة .

« شيلوخ – انظر كيف تعصف ! أريد أن أكون صديقًا لك وأن أنال حبك ، وأن أنسى المعائب التى لطختنى بها ، وأن أقضى لك حاجتك الراهنة ، وأن لا أتقاضاك دانقًا من الربا على مالى ، ومع ذلك تأبى أن تستمع إلىّ !! » .

وهو لهذا أيضًا سيئ الظن ، يخشى كل شىء ، ويتوهم الغدر من كل ناحية يطمئن إليها غيرُه ، ولا يثق حتى ببنته ، لأن سوء المعاملة أفسد عليه نفسه ، ولذلك تراه يخشى أن يكون بينها وبين خادمه لونسلوت اتفاقٌ أو مؤامرة ، ولا يكتم قلقه لدعوة مسيحى له أن يتعشى معه .

« ولكن لماذا أذهب ؟ .. انهم لا يدعوننى عن حب » ويطلب إلى ابنته – إذ يذهب – أن تحكم ايصاد الأبواب والنوافذ التى يسميها « آذان بيته » ويحذرها أن تطل بوجهها من الكوة إذا هى سمعت طبلاً أو زمرًا إذ يطوف « أولئك النصارى البلهاء » ، ويزعم أنه قد لا يلبث أن يعود كأنّ من عادته أن يراقبها مستريبًا . فيا لها من حياة ليس فيها ذرة من الطمأنينة !

وإنه للمرءُ الذى حب المال عنده سواء والسجود ، حتى لقد حال قانون الأخلاق عنده قانونًا ماليًا ! فأنطونيو « رجل طيب » أى قادر على الوفاء إذا اقترض ! ولئن كان يكره انطونيو لنصرانيته فهو أشد كرهًا له

« لأنه أبله يقرض المال بلا ربح ويسقط قيمة الربا هنا بيننا فى البندقية » ولقد سوّى بين المال وابنته لما فرت به وجعل يصيح : « بنيتى ! دوقياتى ! وابنيتا ! فرت مع نصرانى ! وا دنانيرى المتنصرة ! » ولكن حب المال عفّى حتى على غريزة حب الآباء للأبناء ، فصرخ وبه من خسارة المال مثلُ الجنون « ليت بنتى ميتة عند قدمى وفى أذنيها الماستان ! » .

وقد برح به ما لاقاه من صنوف الأذى والتحقير فنزعت نفسه إلى الانتقام ، واحتج له احتجاجًا قويًا فصيحًا مقنعًا يُشعر القارئ أنّ فى مرارة مقته لأنطونيو احساسًا قويًا عميقًا بالعدل ممتزجًا بهذه المرارة . وهل تكاد تنفصل الرغبةُ فى الانتقام عن الشعور المتغلغل بوقع الظلم ؟ إن المرء ليحس عطفًا على هذه الروح المتمردة تحت هذه العباءة « اليهودية » — روح استفزها إلى الجنون الألمُ من تكرر الاستثارة بلا مسوغ ، ودفعها إلى معالجة اطراح ثقل الظلم بالالتجاء إلى الانتقام عن طريق القانون . وكأن شكسبير أراد إثارة هذا العطف حين أجرى على لسانه هذه العبارة البديعة ردًا على بسانيو النصرانى إذ سأله ماذا تفيده بضعة من لحم انطونيو .

« شيلوخ — اتخذْ منها طعمًا للسمك ! وحسبى بها قوتًا لغليل انتقامى إذا لم تصلح قوتًا لشىء آخر ! . لقد جلب علىّ التحقير ، وحال دون اكتسابى نصف مليون ، وسخر من خسائرى وهزأ بمكاسبى ، وامتهن قومى ، واعترض أعمالى ، وفتّر أصدقائى وألهب علىّ أعدائى . وما دافعه ؟ أنى يهودى ! ؟ أليس لليهودى عينان ؟ أليس لليهودى يدان وأعضاء وجسم وحواس ومودات وعواطف ؟ أليس طعامه كطعام النصرانى ؟ ألا يجرحه نفس السلاح ؟ وتصيبه عن الأدواء ؟ ويشفيه نفس الدواء ؟ ويكر عليه الحر والبرد فى الصيف والشتاء ، كالنصرانى سواء بسواء ؟ وإذا شككتنا ألا ندمى ؟ وإذا جمشتنا ألا نضحك ؟ وإذا سممتنا ألا نموت ؟ وإذا آذيتنا

ألا نثأر ؟ وإذ كنا مثلكم فى الباقى فنحن مشبهوكم فى هذا ! ما جزاء اليهودى إذا آذى نصرانيًا ؟ الانتقام ! وإذا أساء نصرانى إلى يهودى فماذا ينبغى أن يكون جزاؤه على ما سن النصارى ؟ انه الانتقام ! وانى لعامل بالنذالة التى تعلموننى ، وسيفدح الأمر ان أنا لم أحذق الدرس الذى تلقيته عليكم »[1] .

وجدير بمثل هذه الحدة فى طلب الانتقام أن تنبه راقد المواهب وتبعث كامن الذكاء ، ولذلك ترى شيلوخ متحفز الذهن ساهد القلب يعصف بكلام خصومه بحججه الدامغة المحتذاة على مثال مبادئهم وأساليبهم . انظر كيف يفحم الدوج :

« الدوج – أى رحمة يجوز لك أن ترجوها وأنت لا ترحم ؟

« شيلوخ – أى عقاب أخشى وأنا لم أصنع شرًا ؟ إن بينكم من لهم أرقاء كثيرون يستخدمونهم كحميرهم وكلابهم وبغالهم فى أعمال حقيرة مذلة لأنهم مما ملكت أيمانهم بالشراء . فهل أقول لهم « أعتقوهم وزوجوهم ورثتكم ؟ لماذا يتصببون عرقًا تحت ما يوقرون به من الأثقال ؟ لتكن أفرشتهم وثيرة كأفرشتكم . ولتنعم حلوقهم بكذا وبكذا من الأطعمة ؟ » لو قلت لكم هذا لأجبتم « إن الارقاء ملكنا » وكذلك أجيبكم ! أن رطل اللحم الذى أطلبه (من انطونيو) قد ابتعته بثمن غال . وهو لى ولابد لى منه ! فإن أبيتم علىّ ذلك فواخجلتا لقوانينكم ! وما أضيع أوامر البندقية وأعجزها ! . إنى أطلب الحكم ! تكلموا ! هل آخذه ؟ » .

وهو ككل الضعفاء المضطهدين ، إذا تمكن طغى ولم يرحم . ومن

(١) القطع المنقولة من الرواية من ترجمتنا نحن عن الأصل الانجليزى .

هنا كان رفضه مرة بعد أخرى أن ينزل عن رطل الحم وأن يأخذ دينه مضاعفًا أو مثله أضعافًا كثيرة . ولكن شيلوخ ليس بوحش ! وإنه لإنسان تعجبك منه نعرة قومية صادقة . لا يذكر قومه إلا واصفًا إياهم بأنهم « أمتنا المقدسة » وليس بغضه للنصارى شخصيًا بل العامل فيه جنسى . ومظالم الفرد عنده متسربةٌ فى مظالم الجنس كله . ومع استهوالك أن يذهب شيلوخ إلى المحكمة مستعدًا بسكينه وميزانه ، واستبشاعك شحذه السكين على نعله كأنما تجرد من كل إحساس بشرى — مع كل هذا ، وعلى الرغم منه ، تحس إذ تنهار قضيته ويخرج من المحكمة مصادرة كل أمواله كأن الرجل مظلوم !

هذا هو شيلوخ كما صوره شكسبير . وإلى جانب هذ الصورة التامة الرائعة البارزة ماذا عسى أن تكون قيمة المصادر التى أخذ منها هيكل الحكاية العريان ؟

المدينة الفاضلة

ودرو – مور ! وتوماس ولسن !

ودرو – ولسن رجل حالم أو إن شئت فقل كمالى يتسخط نظام الأمم ويتبرم به ويرى فيه أصل الشر ورأس البلاء ويود أن يديل منه ، وأن يبدله من فساده صلاحًا . فهو من طراز توماس مور صاحب « اليوتوبيا » وهو كتاب لذيذ ظريف تذكرنا به وبمؤلفه ما يبذله ولسن من المجهودات لاعادة تنظيم العالم على قواعد الحق والعدل والحرية – نقول « كتاب لذيذ ظريف » ولا نخشى لائمة العار فيه لأنا لا نتنقصه وأنما نعنى أن محاولة فرد إصلاح ما فى الدنيا من خلل لا يمكن أن يكون إلاَّ فكاهة يضحك من جرأتها القدر – ولكنها على هذا فكاهة جليلة تبعث الرجاء وتنشئ الأمل فى تحقيق ... المستحيل !! ونظام حياة الأمم ليس من صنع صانع ولا وضع واضع ، ولكنما يتكون على الأدهار والأحقاب – كجزائر المرجان – وهو يتحول ويتعدل لأن الحياة قائمة على التطور ، مبنية على التغير ، لا لأن إنسانًا هنا أو هناك أراد هذا أو أشار به . وقد يظهر من حين إلى حين رجلٌ يكون من دقة الاحساس ولطف الإدراك بحيث يشعر بتيار الزمن واتجاه التدفق فى مجرى الحياة فيعالج العبارة عن هذا الذى تولّته مشاعره ، وتعلقت به مداركه ، ويحاول أن ينطق بلسان الحوادث . ويكون من قوة الخيال وفرط الاعتداد بالنفس بحيث يحسب أن نطقه هو الصحيح ، وفهمه هو الصواب . ومن هذا النوع ولسن ومنه أيضًا توماس مور .

والناس يعلمون عن الأول ما فيه الكفاية ، أما الثانى فلا يعرفه إلاَّ أهل الاطلاع الواسع ولذلك نورد هنا ترجمته باختصار .

ولد مور فى عام ١٤٧٨ ! أى فى عصر النهضة العلمية ، وذهب إلى

أكسفورد ثم انتقل بعد عامين إلى لندن لدراسة الحقوق . وفى الحادية والعشرين من عمره انتخب للبرلمان فلم يلبث أن أحس به زملاؤه . وفى ١٥١٥ أرسل إلى البلاد الواطئة (هولاندة وبلجيكا) وظل شهورًا فى أنفرس وبروكسل يفاوض رسل الامبراطور شارل الخامس . وهناك عرف (إرسم) والتقى بزميل صباه بيتر جيلز وإليه أهدى كتابه ، ثم صار رئيس مجلس العموم فى عام ١٥٢٣ ولما سقط الوزير ولزى صار مور أكبر رجال هنرى الثامن ، فأراد الملك أن يطلق من زوجته فلم يشايعه مور على رأيه فذهب ضحية ذلك .

وقد توخى مور فى كتابه أن يصور الدنيا كما ينبغى أن تكون لا كما كانت فى أيامه ، وأن يصف المدينة الفاضلة الكاملة كما هى فى ذهنه . وكان مخلصًا جادًا فى ذلك لا هازلاً ولا مدلسًا ، ولكنه اتخذ كتابه على الرغم من هذا ذريعة للزراية على الحياة الاجتماعية . والكتاب غاص بالغمزات وبما لا بد فى فهمه من الاحاطة بأحوال زمانه ، ولكن كثيرًا مما يعيب به عصره وينعاه على زمانه واضح بيّن لا يحتاج إلى إعنات روية أو مراجعة . ومن قوله « ولما كانت كل الأمم الأخرى – يعنى غير يوتوبيا – لا تفتأ تبرم المحالفات أو تنقضها ، فإنهم – أى أهل يوتوبيا – لا يحالفون أمة كائنة ما كانت لأن المحالفات فى رأيهم عديمة الجدوى ، وإذا كانت روابط الإنسانية لا تؤلف بين الناس فليس للعهود والوعود عمل كبير أو نفع » .

وإلى هذا الرأى يميل ولسن وان خالفت حجته فى الزهد فى المحالفات حجة مور .

وأكثر الكتاب عبارة عن رواية حديث جرى بين مور وصديقه جيلز من ناحية وبين ثالث يدعى رفائيل صادفاه فى أنفرس ، وهو رحالة عاد من يوتوبيا بعد أن لبث بها خمس سنين . وعلى لسانه وضع المؤلف وصف

هذه البلاد السعيدة ! وحكومة يوتوبيا مؤلفة من نفر يختارون لسنة واحدة ويمثل الواحد منهم ثلاثين أسرة ولكن ولايتهم الحكم لا تميزهم عن غيرهم من أهل البلاد . وواجباتهم المفروضة عليهم كبيرة ، غير أنهم مع هذا لا يختلفون عن سواهم فى أساليب حياتهم .

والحياة الاجتماعية فى يوتوبيا أساسها الأسرة ، وهى تتكون من عدد لا يقل عن عشرة أشخاص ولا يزيد عن ستة عشر ، فاذا جاوز عددهم الحد الأقصى نقل بعضهم إلى أسرة أخرى .

وأهل يوتوبيا لا يستعملون النقود فيما بينهم ، وليس عندهم بيع ولا شراء لأن الخير وفير وكل امرئ واجد ما يشتهى ، وإنما يستخدمون المال فى الاتجار مع الأمم الأخرى — وفيها معادن ثمينة ولكنّ أحقر الأشياء وأتفهها تصنع من الذهب والفضة ، وكذلك الأغلال التى يقيد بها الأرقاء حتى لا يزهى الناس بهذين المعدنين أو يقبلوا على احتجانهما !

والاسترقاق فى يوتوبيا مباح كما هو فى جمهورية أفلاطون ، والأرقاء يُتخذون من المجرمين ومن الأغراب الذين أغرتهم مزايا الحياة فى يوتوبيا بانتجاعها ، وهم يقومون بالأعمال الدنيئة القذرة ويكون منهم القصابون ،لأن أهل يوتوبيا لا يرتضون أن يذبحوا الماشية لأن ذبح الحيوان من شأنه أن يبلد الاحساس بالرحمة التى هى من خير ما ولد مع الإنسان ، ولا يسمحون لمتزوج أن ترتبط حياته بشريك سقيم عليل يساهمه العيش حتى يغيّب أحدهما اللحدُ وقوانينهم قليلة وليس عندهم محامون !!

ولم يغفل مور أمر الحرب ، فقد جعل أهل يوتوبيا يذهبون إلى ضرورة التأهب إذا استوجبت الحال ذلك ، غير أنهم لا يرون فى الحرب مجدًا يجتبى ، أو ثمرة تجتنى ويعتقدون أن مما يفرضه عليهم الواجب أن يقاتلوا إذا اعتدت أمة على جارتها أو حاولت إكساد تجارتها ، ويخجلهم أن

يحرزوا نصرًا داميًا على أعدائهم فلا يزالون فى الحرب أهل رفق وإبقاء على خصومهم ، وإذا لم يكن من القتال بد فعليهم أن يذيعوا فى بلاد العدو الوعد « باجزال العطاء لمن يقتل الأمير وغيره ممن أوقدوا نار الحرب » وهم عدا ذلك يعتمدون الاحسان إلى الأسرى ليتألفوا قلوبهم « ولأن أكثرهم لم يقاتل عن رغبة فى اهراق الدماء وإنما ساقته إلى الحرب طغوى الأمير » .

أما من حيث العقيدة فهم يؤمنون بالله ، ولا يرون من حقهم أن يتصدوا لأحد بإعنات من أجل رأى أو معتقد . وختام الكتاب زراية واستطالة على نظام الاجتماع الذى يترك الناس طبقتين : أغنياء متبطلين ، وفقراء متوجدين .

وهذه خلاصة وجيزة لصورة الحياة الكاملة فى رأى مور . وقد يلاحظ أن مثل هذه الآراء والصور إنما تظهر فى العصور التى تؤذن بتطور كبير .

ولعل القارئ بعد هذا يتساءل ، وما معنى « يوتوبيا » وأين هى ؟ فنقول ، معناها « لا وجود له » وكذلك الكمال فى الدنيا لا سبيل إليه !

ديوان العقاد

ترجمة شيطان . من نار إلى حجر

في حومة السياسة الآن ركدةٌ قصيرة الأجل ، يرصد فى خلالها كل فريق أهبته ، ويحشد لما بعدها قوته ، وغدًا سنشبع من الطبل والصيال ،ومن أبواق الدعوة إلى أقدس النضال . فما علينا لو اهتبلنا هذه الفرصة وأركضنا الفكر فى حلبة الأدب ؟ فى ميدان خالص لوجه الإنسانية قاطبة ، لا تعتلج فيه إلاَّ القوى النزاعة إلى الكمال ، ولا تشرئب فيه العيون إلاَّ إلى مثل الجمال والجلال ؟ ؟ نعم ماذا علينا وأى بأس من ذلك ؟ أليست حياة الأدب خاصة ، والفنون عامة ، هى طليعة كل نهضة سياسية واجتماعية ؟ أين فى التاريخ أمة وثبت إلى الحياة القوية دون أن يهيئ لها الأدب أسبابها ؟ أليس الواضح الذى لا يحتاج إلى إبانة أو تدليل أنه لابد أن يفطن المرء إلى وجوده ، ويعرف نفسه ، ويدرك صلتها بما حولها ، ويطلع على جوانب حياته ، قبل أن يسع مجموع الأمة أن يقدر وجوده وحقوقه بين أمثاله وأنداده ؟لا ريب أن هذا كذلك ! وإنها لمن أعجب القسم أن يضطر أحدنا إلى الدفاع عن نفسه وتسويغ عمله فى مستهل كلام له بهم به على الأدب حتى فى وقدة المعمعة السياسية !! وكان حسب كل منا أن يسأل نفسه : بأية حيلة شاعت مثل الحياة العليا بين الجماهير الساذجة ؟ وكيف شغلت من النفوس كل خلية ؟ وما الذى أعد القلوب لاستيلاء الآمال القومية على هواها ؟ ولعمرى أن هذا لبعض ما يؤديه الأدب لأنه عالمى فى آثاره كما هو إنسانى فى بواعثه الأولى . ومن ترى ينكر علينا قولتنا هذه ممن يعلمون أن مجرد انتفاء الأمية بانتشار القراءة والكتابة يكفل للشعوب الأخذ بأسباب النهوض ؟

وكأنى بالقارئ قد طالت به الفاتحة وشقى صبره فأحب أن يخلص منها إلى الخاتمة ، والعبرة بها ! أليس كذلك ؟ فهو يقول « وماذا بعد ؟ » .

بعدُ أن أخانا العقاد أصدر الجزء الثالث من ديوان شعره فى نيف ومائة صفحة بالحرف الدقيق . وليس هذا كل ما قاله مذ ظهر جزؤه الثانى ولكنه طائفة كبيرة منه لا يسعنا أن نتناولها كلها قصيدة قصيدة ولكنا مجتزئون بواحدة منها لغاية سنجلوها للقارئ .

لأول مرة فى تاريخ الأدب العصرى – والعربى أيضًا – يرى القارئ عملاً فنيًا تامًا قائمًا على فكرة معينة تدور على محورها القصيدة وتجول . ولعل هذا من أظهر مميزات الأدب الحديث وأكبرها .فقد كان الرجل يقول القصيدة مسوقًا إلى قرضها بباعث مستقل عن النفس ولكنك هنا ترى بناءً مشيدًا نبتت فكرته لسبب مفهوم وعلة طبيعية مشروحة وأعمل الشاعر ذهنه فى جملتها وتفاصيلها ثم أفرغها فى قالب تخيره لها بعد الروية ، وعرضها فى أسلوب فنى موسيقى أبدعه لها – .

فأما موضوع القصيدة – كما هو ظاهر من عنوان هذا المقال فترجمة شيطان – .

صاغه الرحمن ذو الفضل العميم ... غسق الظلمـاء فى قـاع سقر
ورمـى الأرض بـه رمى الرجيم ... عبرة ، فاسمـع أعاجيب العـبر

فهوى الشيطان إلى الأرض ليضل فيها من يشاء فحار بادئ الرأى أين يمضى :

بيد أن الشر مـا زال أريـًا
وسبيل الغى ممهـود الجناب
لـن تـراه حيث تلقـاه غريبًا
أبد الدهـر ولا نزر الصحاب

فهبط أول ما هبط فى أرض الزنوج حيث :

لا ينـــام الظل فى أرجائها
وهمـــو ظـــل عليهـــا قائم

فاحتقرهم الشيطان اللعين المزهو ، وسخر من قسمته « ومشى ينغم فى غير طرب » إلى أن استقر به المقام « حول بحر الروم أو بحر العجم »

ورمـى أول فـــخ فأصـابا
ودعاه (الحق) واستلقى فنام
وأناب الحـق عنـه فاستجابا
فإذا الحق لجـاج واختصام
وإذا الحـق طـــلاء الخبثاء
رسن الواهن، سيف المعتدى
ضلة الجهـال ، لغز الحكماء
ذلـــة العـبد ، عرام السيد

وتمادى اللعين فى شره « كلما أنبت زرعًا ينعًا » غير أنه استهدف للتلف لمداخلته الناس من جهات الضعف فى نفوسهم ، ثم أنف من فتنته أممًا هو يأنف من إهلاكها :

مـا لـــه يفسد خلقًا عدمـوا
آيـة الرشد ؟ وهبهـــم رشدوا
كلهم طـالب قـــوت ، والثرى
– ذل قوم أو تعالوا – مخصب
وقصارى الأمر فى هذا الورى
راســبٌ يطفو وطـــافٍ يرسب

فكفر الشيطان بالشر الذى تبذره كفاه ،وذلك كفر شر من الكفر

بالخير « لأنه يرى الخير أهون من أن يستحق العناية بإزالته ورصد المكائد له فالراشد والغاوى عنده سيان » وعد الله منه ذلك ندمًا وأدخله جنته —

فاعجبوا من نعمة الله العجاب وانظـروا كيف تلقاها الرجيم

فنزل الشيطان من الجنة « منزلاً يرضى به الفن الجميل » :

ونفيض الوصف لـولا أننـا
نصف الدار لكم يا داخليها

على أن الشاعر مع ذلك لا يسعه إلاَّ أن يطيع قوة خياله وإلاَّ أن ينزل على حكم الشاعرية الضخمة ، فألم بصورة خلابة من إبداعه فى عشر مقطوعات .غير أن الشيطان لم تخلد نفسه الخبيثة إلى الخلد فكان « يزداد على التسبيح قبضًا » ونظرت الملائكة إلى وجهه فرأت شيئًا عجبًا لم تألفه ، وكان راكبًا فى رفقة منها فوق السلسبيل « مركبًا يزجيه سلسال النغم » فلما تمادى الأمر سئموا وناموا نوم الأطفال غلب عليهم الملال ، وتساءلوا لدهشتهم وطهارة قلوبهم « هل الويل الذى يصيب أهل وادى جهنم هو هذه الفترة التى تجلب النعاس للعيون » ؟

فانثنى العـابس وقـاد الجبـين
صارخًا صرخـة مقضى الهـلاك
أى واد ؟ ؟ قال وادى الكـافرين ،
قـال دع هـذا فمـا أنت وذاك

وسأل الملائكة كيف ترونا هاهنا فقال أحدهم إننا للفائزون :

قـال لكنـى أرانـا كلنا
وأراكم قبل ، أشقى مـا يكون

فذعروا « كالجيش فى هول الفرار » وساءهم أن لا يحسدهم فى الجنة وأن ينكر عليهم السعادة ويسلبهم إياها بانكارها ، وينغص عليهم مقامهم

فى الفردوس ، ويعلمهم ما لم يعلموه من الغضب . ولطف الله فلم يرجموه بالنجوم . ثم أوحى الله الوحى فى جنته :

فإذا الجنـــــة أمـــنٌ وســكون
كسكون الليـــــل فى ضوء القمر
خشعت حتى الشوادى فى الغصون
وصغت حـــتى وريقات الشـــجر

وانجلى الموقف « عن جلال الله فردًا فى علاه » :

وتنحى كل مشهود فمـــا
ثم إلا الله والطـــاغى المريد

وحاقت اللعنة بالجانى الذى لا يندم ، وجهر اللعين بعصيانه ، وأخذ يبرره بكبرياء لا تسمح له أن يطلب العفو أو يصغى حتى للوم « وجعل يستصغر الفردوس لأن له رجاء فوقها ولذلك لا يسميه فردوسًا ولا يعد الرضى به نهاية السعادة كما أن الضب يرضى بجحره وليس جحره بأقصى ما ترتقى إليه الأمال وجعل يتسخط قيمته ويقول كيف يرضى بهذه القسمة الخالدون ؟ أيعانون ذلك الشأو الذى فوقهم وهو لا يعاف ؟ أو يجهلونه والجهل نقص فى مرتبة الخلود ؟ أو يطلبونه فلا ينالونه فيكونون من المحرومين ؟ » فرأى الله من الرحمة بالخلق أن يخمد جذوته :

حين جارت فتنة الغاوى على
عصمة الأمـــلاك فى عزتها
عجّل الله بـــــ مـــا أجلا
وحمى الدولـــة فى بيضتهـــا

فمسخه صخرًا ! ولكن هل يزول الطبع ؟ إنه لايزال يستهوى العقول

فى الدمى والتماثيل . ولم يأسف عليه إبليس بل عجب كيف طاش لسانه وأخذته الغيرة على الصراحة وشك فى أنه شيطان صميم — :

أترى شـيطانة مـن قومنـــا
أغوت الأملاك فهو ابن ملك ؟

وليس ما أوردناه من خلاصتها إلاَّ هيكلاً عاريًا لهذه القصيدة التى تقع فى أكثر من ثلاثمائة بيت على هذا النسق البديع الرائع وقد كان الباعث على وضعها ما انتاب الشاعر فى أواخر الحرب وفى ابان الحوادث المصرية الأولى من الشك والغيظ اللذين رجّا عنده « كل قواعد الرأى وشوّها كل حالات الوجود الإنسانى فوقر عنده أن الحياة ، كما قال سليمان الحكيم بعد تجربتها « قبض الريح ، وباطل الأباطيل » ولكن هذه الغيمة انجلت فعاد إلى رأيه الأول « فى الحق والعدل معتقدًا أن الحق كائن فى صميم الأشياء وأن الوجود والباطل نقيضان لا يتفقان إلا كما يتفق الوجود والعدم » .

أما نحن فإنا نحمد غيمة هذا الشك التى دفعته إلى صوغ هذه الآية الفريدة فى لغة العرب والتى يحق لنا أن نباهى بها براعات الغرب . وإن فى ظهورها لدليلاً على انتهاء دور التمهيد الذى اضطرنا إليه ركودُ اللغة قرونًا عدة واننا الآن فى دور البناء الفنى ، وإذا كانت اللغة قد اتسعت للشعر القصصى على هذا النسق فهى لن تضيق عن غيره من فنون الشعر بحمد الله ثم بفضل العقاد .

الأدب ينهض فى عصور المشادة
لا عصور اللين والأمن
كتاب القصول

مجموعة مقالات فى الأدب والاجتماع ، وطائفة من الخطرات والشذور فى موضوعات شتى ، ينظمها فى سلك واحد تيارُ الفكر الذى أنضجها وما بينها من التناسب والاشتراك فى المنحى : فمن نظرات فى فلسفة المعرى إلى نقد لسير الرجال وتقدير لحياتهم وأعمالهم ، ومن مقال فى الألعاب الرياضية إلى ساعات مقضية بين الكتب وآراء فى الشعراء وخارجياتهم ، ومن تحليل للإحساس بجمال الطبيعة وتبيين لمواضع الملاحة فى الإنسان ، إلى وصف لمغنّى المجالس ، ومن « جولة فى الماء محدودة وجولة فى السماء غير محدودة » إلى آراء فى الأساطير ونقد للكتب وتعليل لما يلقاه مثل شارل شابلن من الحفاوة فى حيثما حل .

ولو شئنا ، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب وتحريره ، لباهينا بالمذهب الجديد فيه وبفوزه على صنوف الاستبداد التى همت به وعالجت خنقه ، فقد خرج من كل ما خاض من المعارك إلى هذه الساعة ، صادقَ الرجولة تامّ الاتّزان ، مبرأً من عيبين على وجه الخصوص : محال الماضى البائد ، وطيش الانتقال وما تغرى به أدوار الانقلابات الأدبية من التعلق بالتطرف ومجاوزة المدى المعقول والحد الطبيعى . وناهيك به من فوز على الاستبداد السياسى الذى تعانيه الأمة ، وتجرع مرارته ، وتضج من أذاه منذ سنين على فرط تشددها ، وعنتِ التحيز الذى يأبى إلاّ أن

يقضى – لو استطاع – على ما لا يحب أو يخاف أن يظهر ، واستبداد التعصب حيال الجديد ، واستبداد الشهرة الذى يمكّن صاحبها من تخطى الرقاب والاستغناء عن الاخلاص والصدق ، واستبداد الأغلبية العمياء التى يفتنها العابثون والمحتالون بالكلام الخلاب والعبارات الجوفاء ، ثم استبداد الجهل الذى يجعل كل ضرب من ضروب الاستبداد الأخرى ميسورًا مستطاعًا .

فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف العنت وضروب الاستبداد ، ولكنّ العراك العنيف الذى دارت ارحاؤه لم يستثر – كما يحدث كثيرًا – العواطفَ الدنيا ولا شيئًا من الشهوات المرذولة أو الطغيان الذى يحيل النصر فى آخر الأمر شرا من الهزيمة ، لأن دعاة هذا المذهب يفهمون الحرية على حقيقتها ويبغون الحقيقة وحدها ، ولا ينشدون سوى تنبيه خير ما فى الطبيعة الإنسانية ، ولا يطلبون أن يرفعوا نير الجهل ويفكوا القيود العارقة ويتحرروا ليستبدوا بغيرهم ويضعوا اللجم كأسلافهم فى الأفواه ، والأصفاد حول الاعضاد ، والعقبات فى سبيل النفوس الناشئة السائرة على الدرب . وما خير أن يحتذى المرء مثال رجال الثورة الكبرى فى فرنسا حين نفضوا عنهم استبداد البوربن ثم لم يلبثوا ، لما عاد المجد القومى على يد بونابرت ، أن أقاموا مقامه الاستبداد العسكرى ؟

ومن المظاهر الغريبة لهذا العراك والصراع أن دعاة المذهب الجديد كانوا – وما يزالون – مستعدين لمنازلة من شاء ومقارعته بالحجة الدامغة والبرهان القاطع ، ولكن المذهب القديم لا يعول على حجة ولا يستند إلى عقل ، فكان ومايزال حسبه من المقاومة الاعتماد على الجهل الفاشى وعلى غفلة النفوس وعلى اعتياد الجماهير الطريقة القديمة وعلى الصعوبة الطبيعية التى تواجه كل من يعالج تحويلَ التيار وصرفَ النفوس عما ألفت والقلوب

عما اعتنقت ، بالغًا ما بلغ ذلك من الخطل والضلال . ولاشك أن الأدب على الخصوص خطا خطوات واسعة فى هذا الجيل وأن نهضته هذه لم تكن فى ظل الحرية ! أفليس من العجيب أن ينشأ فى مصر أدب صحيح وأن تصبح هذه البلاد مهد الأدب والتهذيب فى الشرق على الرغم مما ترسف فيه من الأغلال ؟ ولكن هذه الظاهرة ليس فيها شيء من الغرابة ، ولا هى فذة نادرة فى تاريخ الأدب فى الأمم الأخرى . والواقع الذى يهدى إليه الاستقراء هو أن من المشكوك فيه جدًا أن تستطيع أمة آمنة طامحة إلى الرخاء القومى والرفاهية المادية أن تأتى جليلاً فى عالم الأدب والفنون . ولقد كانت أزهى وأمجد عصور الأدب فى انجلترا ورومية هى العصور التى كانت فيها هاتان الدولتان تذودان عن كيانهما وتناهضان ما يتهددها بالقضاء عليهما وينذرهما بالإلواء بهما . ألم يكن عصر اليصابات مقاومة مستمرة لعدوان اسبانيا فى الخارج ولشتى الخصوم فى الداخل ؟ ألم يُخرج فيرجيل وهوراس وليفى وغيرهم من كتاب « العصر الذهبى » فى رومية براعاتهم فى أبان الحرب الأهلية الكبرى التى جعلت أغسطس امبراطورًا أو بعدها مباشرة ؟ وتأمل بعد هذين ، المانيا أيام تفككها وانحلالها ، وحين كانت ترهقها عشرات الحكومات الصغيرة المستبدة والأوليجاركيات والامارات والأسقفيات ومدن الامبراطورية « الحرة » ؟ لم يكن فى المانيا لذلك العهد من حر سوى الفكر . ولقد كان فردريك الكبير يفخر بالاتفاق بينه وبين رعاياه على أن يفعل ما يشاء وأن يدعهم أحرارًا فيما يرتأون ويقولون . أما فرنسا فكانت منغمسة فى التوسع غارقة فى لجج النظريات السياسية ، أسيرة لشهوة الفتح ، وأما انجلترا فكانت تُثرى وتفعم جيوبها وتنقاد إلى شهوة الرخاء المادى على حين كانت المانيا المنقسمة المتدابرة المتطاحنة التى تقيمها وتقعدها الدسائس والأحقاد الوراثية — خالصة لها دولةُ العقل أو « ملك السماء » كما شاء بومةُ المانيا ، جان بول رختر ، أن يقول — وشبيه بهذا ما حدث فى ايطاليا قبل نيف وثلاثمائة عام حين أخرجت للعالم أساتذة النهضة الأدبية والفنية فيما يسمونه عصر الرينسانس . ومثل هذا

أيضًا وقع فى بلاد الاغريق قبل ألفى عام أو أكثر . وهذه الروسيا خير أدبائها وأفحلهم من نبغوا فى ظل الاستبداد القيصرى مثل تولستوى ودويستفسكى وترجينيف وجوركى وهاتزيباشيف – ولينين أيضًا !

وتعليل ذلك سهل . فإن عصور الأمن عصور طراوة ودعة لا تحفز النفوس ولا تستثير قواها الكامنة ، وعلى النقيض من ذلك عصور المشادة والجهاد التى تحرك أعماق النفوس وتزخر كل تياراتها ، وتبتعث رواقدها ، لما تتطلبه طبيعة العراك من استمداد كل قوة . نعم إن عهد الاستبداد يغرى النفوس بالتماس الفرار من الاحساس بوقع الظلم ومرارة العسف ، فيكثر الاقبال على أسباب التلف ، والافراط فى معاقرة المتع الضئيلة واللذاذات الحقيرة . ولكنه لا يكلف بذلك إلاّ النفوسُ الجدباء التى لا خير فيها فى أى عصر ، أما ما عداها فسلواها تأمل نفسها وما حولها ، ودرس هاتيك جميعًا ، وقياس بعضها إلى بعض ، ومعالجة جعل ظروف الحياة وفق مطالبها وآمالها . وقد لا يبيح لها الاستبدادُ إلاّ توخى ما يحسبه أسلمَ الأعمال وآمنها مغبة ، كوضع الروايات وهو ما جرى فى الروسيا . ويظن المستبدون أن لا ضير في هذه ولا بأس منها ! كأن تصوير ظروف الحياة ووقعها للقارئ الغافل أو العاجز عن تأليف هذه الصورة لنفسه وجمع شتاتها وتقدير أثرها – لا أثر له فى تكوين إرادة الجماعة وحفزها إلى نشدان ما ينقصها ودفع ما يرهقها . ولقد حدث أن بعض القياصرة كان يستمع إلى روايات دويستفسكى – أو غيره – ويضحك ويعجب لمهارة الكاتب وصدق تصويره ودقة تحليله . ولم يكن يدرى أن هذه الروايات بعينها هى التى ستثل عرش أسرة رومانوف بما نفثت فى النفوس ونبهت ! كما كان لويس الرابع عشر يشهد روايات موليير ويغرب فى الضحك وإن كانت على هذا من أول بواعث الانقلاب الاجتماعى !

إذن فلا عجب أن ينهض الأدب فى مصر ، وأن تكون نهضته قوية جارفة تعفى على القديم وتفتح أبواب الفكر التى أغلقها التقليد ، والمتنفسات

التى سدتها السخافة والجهل . وإن المرء لتعروه هزة جذل حين يرى كتابًا جامعًا كهذا الذى أخرجه أخونا الأستاذ العقاد وكتب به للمذهب الحديث نصرًا جديدًا ، وفوزًا آخر مبينًا . ومن ذا الذى لا يفرح لتحرر العقل وخفق أجنحته فى الفضاء الطليق ؟

ولقد كانوا يعيبون على المذهب الجديد أنه يهدم ولا يبنى ، كأنما يمكن أن يبنى المرء قبل أن يزيل الأنقاض ويصلح الأرض ويهيئها للبناء .فاليوم ما عساهم أن يقولوا ؟ هذا كتاب كله بناء وتشييد ، فهل يفرح الجاحدون كفرحنا به ؟ لا نظنهم يستطيعون ذلك ! وما كنا لنطالبهم بما يفوت ذرعهم ويخرج عن طوقهم . إذن فليغصّوا به إذا شاءوا !!